ديناميةالنقد السيميائي السردي في الجزائر مدونة «رشيد بن مالك» أنموذجًا

أ. مولاي ربيعة : جامعة سعيدة

يعدّ التحليل السيميائي السردي من أبرز المناهج النقدية الحديثة، المنبثقة عن ذلك الجهد اللغوي المدروس في القرن الماضي، والذي سمح للعقل البشري (الفكر النقدي) بتناول مخلّفات الفكر الإنساني وفق منهجيات وطرائق علمية تسعى إلى تحقيق الانتظام وتقديم نتائج ذات برهان منطقي يحدّ من غلو تخوم الأفكار الشمولية.

وقد تحوّل التعامل النقدي مع الفكر الإنساني بمختلف مخلّفاته، من التعبير الانفعالي، الذاتي، الانطباعي، الموسوم بالإنشائية، إلى التعامل العلمي في القراءة التقييمية، ذلك أن تسلسل الأحداث في النص، والذي يمثله موضع المحكي كنقطة اشتغالية تعتمدها السردية الحديثة يخضع لمنطق رياضي يراعي انسجام النظام، وتناسق التركيب، إلى أن تسمو إلى مستوى التحليل الرياضي، المعتمد على البرهنة والحساب يقول غريماس / Greimas «الوحدة الخطابية التي هي المحكي، نتمثلها كعملية حسابية بمعنى ملفوظات متتابعة، حيث تشكل فيها الوظائف – المسندة ألسنيا، مجموعة من التصرّفات الهادفة إلى تحقيق غرض ما».[1]

والذي تتضمّنه أطروحات المعنى في المرسلة/Message بمختلف تمظهراتها الإيحائية «... الإشهار، الصحف اليومية الإخبارية، الراديو، الرسم (الكاريكاتير) دون الحديث عن استمرار مالانهاية له من العادات التواصلية (عادة الشهرة الاجتماعية)...».[2]

وقد عرف منهج التحليل السيميائي السردي، التأسيس العلمي والفعلي، على يد أ.ج غريماس / A.J. Grimas رائد «مدرسة باريس / Ecole de Paris. وذلك طبعًا بعد جهد نظري جاد أسس لمنطلقات النشأة السيميائية السردية، ومثل أبرز محطات[3]* المسار الكرونولوجي لهذا العلم المحقق لاستقلاليته المنهجية.

واقع الإجراء السيميائي السردي في الجزائر: إنّ التتبع الجاد لمسار الحركة النقدية

السيميائية السردية في الجزائر، يكشف للفاعل – لا محالة. تلك الحركية الفاعلة والمتجددة، والمسايرة لفاعلية التطبيق السيميائي وفاعليته عند الآخر / الغرب، إن من ناحية مستوى التناول النقدي، أو من ناحية الآلية، أو من ناحية المناهج أو البرامج، وكل ما هو ذو صلة بالرصيد الفكري والمعرفي والعلمي للمنهج.

إلاّ أن هذه الحركية على الرغم من تجدّد تطبيقاتها وفاعلية أدواتها الإجرائية، ما تزال بعد حركية محتشمة تعاني قلّة في مستوى الإسهام، بمعنى أنّ روّاد هذا الاجتهاد في الجزائر إلى حدّ الساعة قد يعدّون على أصابع اليد.

1. عبد الحميد بورايو: الذي يعدّ رائد الحركة النقدية السيميائية السردية في الجزائر بامتياز، وذلك اعتمادًا على الجهد المقدّم من لدنه في حقل الاختصاص (تأليفا، ترجمة، وإجراء) إذ نجد له على سبيل المثال لا الحصر (منطق السرد، المسار السردي وتنظيم المحتوى، الكشف عن المعنى في النص السردي في جزئين (ترجمة)).

2. عبد المالك مرتاض: الذي قدّم أبحاثا ودراسات لا يستهان بمستواها العلمي، والتي تعدّ لبنة من لبنات البناء العلمي لصرح هذا الحقل، حيث نذكر له (تحليل الخطاب السردي، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)). وإن كان أسلوبه في المعالجة تعليميا، إلاّ أنّه يقدّم الدّعم القوي لنا نحن كباحثين متعطشين لاستيعاب النظرية السردية.

4. أحمد يوسف: بخاصة مؤلّفه «الدّلالات المفتوحة مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة»، الذي يطرح فيه إشكاليّة العلاقة بين العلامة والمعنى كونهما يشكّلان»مدارات السّيميائيّات على اختلاف اتّجاهاتها»[4].

وكذا مؤلّفه المعنون ب»السّيميائيات الواصفة،المنطق السيميائي وجبر العلامات»الذي لا يكاد يبتعد عن سابقه من حيث الدّراسة.

5. بشير عبد العالي: الأستاذ والباحث الأكاديمي، الذي أثرى حقل النقد السيميائي استنادًا إلى أعماله وأبحاثه الأكاديمية، التي نجدها دائمًا تنشد السعي إلى التدقيق في استخدام المصطلح وكشف الضبابية أو الفتنة التي أصابته. من ذلك نذكر مؤلفه «تحليل الخطاب السردي والشعري» كما نشر مجموعة من المقالات في مجلات محكمة ذات طابع سميائي من بينها: (1 - سميائية الصورة في رواوية عابر سرير 2 - ترجمة نص 3 - السميولوجيا 4 - قصة معاذة العنبرية للجاحظ 5 - النظام العاملي في رواية زمن النمرود 6 - غاريباس عبر سيميائية بطل بامتياز).

6. عبد القادر فيدوح: في مؤلفيه: شعرية القص: الذي يتحدّث في بعض من جوانبه عن الأسس والمبادئ العلمية ذات الإسهام الجاد في تشكل علم السرد أو السارديّة كمصلح خاص به.

دلائلية النص الأدبي (قراءة سيميائية في الشعر الجزائري)، الذي يعدّ أوّل دراسة علمية جادّة، راعت قوانين البحث العلمي السيميائي، في المقابل مثل نص القصيد الجزائري أرضية الإجراء.

7. قراءة في المدونة بن مالك رشيد

الأستاذ الدكتور «رشيد بن مالك» من الباحثين الجزائريين، الذين كان لهم السبق الأقوى والإسهام الجاد في بلورة النظرية السيميائية السردية على المستويين العربي والمحلي، وهذا استنادًا إلى أهمّ الاجتهادات الجادّة والرائدة، التي قدّمها في هذا المجال.

من ذلك نقرّ له بما يلي:

1. أفعال الترجمة: - آن إينو وآخرون، السيميائية (الأصول، القواعد، والتاريخ).
- آن إينو، تاريخ السيميائية.
- جان كلودكوكي، السيميائية (مدرسة باريس).

2. التأليف: - قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص.وهو بصدد إعادة صياغته وإثرائه من جديد.
- مقدّمة في السيميائية السردية.
- البنية السردية في النظرية السيميائية.
- السيميائية (أصولها وقواعدها).
- السيميائيات السردية.
- السيميائية بين النظرية والتطبيق.

3. اجتهادات البحث: تأسيس مخابر بحث ومجلات علمية محكمة، تسعى إلى تأسيس قاعدة عربية صلبة تصبّ في حقل الاختصاص.وعنوانها»بحوث سيميائية».

أمّا المدوّنة النقدية التي سيتعامل معها بحثنا فتتمثل في:

1. مقدّمة في السيميائية السردية: البحث الذي سعى فيه الناقد إلى تحديد أهم المنحدرات التاريخية والعلمية للإجراء السيميائي الراهن «دراسة الأصول اللسانية

والشكلانية التي انبنت عليها النظرية السيميائية (مدرسة باريس) واستمدّت منها مصطلحيتها العلمية».[5]

حيث عرض لأهمّ النقاط المؤرخة للتأسيس الفعلي للنظرية السيميائية السردية، ومن بين تلك النقاط:

1. الأصول اللسانية: التي حدّد من خلالها أهم المبادئ المؤسسة للدراسة الدلالية من ذلك:

- موقع المسألة الدلالية من البحوث اللسانية.
- مبدأ الاختلاف.
- المربع السيميائي.
- الملفوظ السردي
- الكفاءة والأداء.

2. الأصول الشكلانية: التي كان لها الدور البارز في تقديم الدعم التنظيري الهام للتحليل السيميائي، والذي اختزله «رشيد بن مالك» في كتاب مورفولوجية الحكاية (Morphologie du conte) لـ «فلاديمير بروب» «الباحث الوحيد في الاتجاه الشكلاني الذي تعمق في دراسة الحكاية تعمقاً مكنه من استخراج بنيتها، ويعتبر كتابه الموسوم مورفولوجية الحكاية ... من الكتب الحاسمة في تطور الدراسات البنيوية والسيميائية، والنموذج الأكثر نضجاً في بحوث الشكلانيين».[6]

حيث خلص فيه إلى النقاط التالية:

1. عدد الوظائف التي تتحكم في الحكايات الروسية تبلغ إحدى وثلاثين وظيفة، ليس شرطاً أن ترد هذه الوظائف متتابعة.
2. تحديد الوظيفة ينبغي أن يكون بمثابة المحصلة لاعتبارين أساسيين:

أولهما: تحديد الوظيفة انطلاقاً من الفعل بصرف النظر عن الشخصية المنفذة له.

ثانيهما: لئن وجب فهم الفعل في السياق السردي، فإن دلالة أية وظيفة معطاة ينبغي أن تستمد من تطور الحبكة.

3. تحليل الحكاية، ضمن هذا المنظور (البروبي) مرهون بوصفهاوقفا لأجزاء محتواها وعلاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض ثم علاقتها بالمجموع.

وفي نهاية القسم الأول من البحث يضع الباحث ثبتاً للمصطلحات يمثل «اتفاقا مبدئياً من لدنه حول حدّ أدنى من المصطلحات المسخّر لتأسيس خطاب علمي جدير بهذا الاسم». [7]

أما عن القسم الثاني من البحث فيمثل الشق الإجرائي، فهو كما يقول «محاولة لتثبيت المكتسبات النظرية التي تم التطرق إليها عند عرض أسس هذه النظرية» [8]، حيث قدم:

- قراءة سيميائية في قصة «العروس» للروائي غسّان كنفاني.
- تحليل سيميائي لقصة «عائشة» لأحمد رضا حوحو.
- سيميائية الفضاء في رواية «ريح الجنوب» لعبد الحميد بن هدوقة.

2. السيميائيات السردية: يمثل هذا البحث امتداداً لسابقه، حيث يهدف الباحث من ورائه إلى تأسيس «سيميائية عربية متطورة» في الآن ذاته لا تمثل انعكاساً آلياً للسيميائية في الغرب، وعليه فقد تم تخصيص مدخل نظري «لقراءة بعض الإنجازات السيميائية العربية الراهنة وتوصيف المشاكل المنهجية العالقة بخصوص التوجه النقدي الجديد الذي تمكن في ظرف وجيز من فرض سلطته المعرفية على البحوث التي يتبنى أصحابها مقتضيات الخطاب العلمي في قراءة الأنظمة الدالة باللسان وغير اللسان».[9] ولكن قبل خوض مغامرة المستقبل السيميائي في العالم العربي، تم التوسع قبلاً في قضايا السيميائية الغربية من ذلك:

- واقع وآفاق السيميائية في الفكر الغربي.
- التطورات الراهنة في النظرية السيميائية.
- إشكالية ترجمة المصطلح.
- موقع البحوث السيميائية من الدراسات النقدية العربية المعاصرة.
- قراءة في بعض البحوث السيميائية العربية.

وهذا فيما يخص الشق النظري للبحث، أما عن الشق الإجرائي، فقد خصصه «رشيد بن مالك» لدراسة مجموعة من النصوص السردية التي تمثلت في:

- دراسة تحليلية لرواية نوار اللوز (النظام السيميائي لفاتحة الرواية/البحث في مستويات النص وأشكال بنيته، البنية السردية وتجلياتها الدلالية، شخصيات الرواية/تصنيفها وتنظيم مكوناتها الشكلية).

- قراءة سيميائية في رواية «عواصف جزيرة الطيور» (رهانات الصراع في الرواية)

وفي الأخير نقول: إن هذه الدراسة اشتغلت على النظرية السيميائية السردية من زاويتين اثنتين:

الأولى: نظرية تم فيها الاشتغال على نقد الدرس السيميائي السردي على المستويين الغربي والعربي، بمعنى نقد النقد.

الثانية: إجرائية تم فيها الاشتغال على نقد النص السردي وبالتالي: نقول إن هذه الدراسة تعد سنداً علمياً ودعماً منهجياً لأولئك الباحثين الساعين إلى إثراء ورفع الرصيد المعرفي عندهم.

3. السيميائية السردية في النظرية السيميائية: اهتم الباحث في هذه الدراسة بالاشتغال على ثلاثة بحوث أساسية، من شأنها أن تقدم للقارئ العربي السند الأقوى في مجال البحث العلمي السيميائي، وقد تمثلت ثلاثية البحوث فيما يلي:

1. البنية السردية في النظرية السيميائية: وقد عمد فيها الباحث إلى تسليط الضوء على «المكون السردي، والآليات التي تحكمه، والقواعد التي تضبطه بدءًا من التحديد النظري للبرنامج السردي الذي يستند إلى تحليل مكونات البنية السردية وفحص العلاقات الموجودة بين الفاعل والموضوع والتي ترتهن في وجودها إلى مجموعة من الحالات والتحويلات التي تكون في تواليها نظاماً قادراً على كشف بنية المكون السردي».[10]

حيث يتعرض الباحث في هذه الجزئية الى الفصل في المفاهيم الأولية المؤسسة لصرح البنية السردية في النظرية السيميائية من ذلك:

- مفهوم الحالة والتحويل
- مفهوم موضوع القيمة في حقل البحث اللساني والبحث السيميائي.
- مفهوم البرنامج السردي.
- الأسس النظرية للبرنامج السردي.
- الرسم السردي Schéma narratif.

ليختم هذا البحث بتمرين تطبيقي، قام به جوزيف كورتيس في كتابه الموسوم «التحليل السيميائي للخطاب»، كسعي من الباحث إلى تبسيط المفاهيم النظرية

وتقريبها من القارئ إجرائياً.

البحث الثاني: وهو «ترجمة لنص يتعرض فيه الباحث بيرنار بوتي Bernard Pottier بالنقد والتحليل لمسألة تمس إشكالية الثابت والمتحول في البرنامج السردي انطلاقاً من فرضية تطورية طبيعية». [11]

حيث قدّم بوتي نقداً جديداً لمخلفات البحث العلمي السيميائي ذي التوجه الغريماسي، أكد اعتماداً عليه أن «الصيرورة قاعدة ضرورية لكل برنامج سردي، وأن الفاعل المنفذ الذي يعد محولاً للحالات قصد الدخول في وصلة بموضوع القيمة (الموزع الغريماسي) ليس في نهاية الامر إلا سبباً في التغيير». [12]

البحث الثالث: وقد خصصه «لترجمة نص للباحث ج. ك كوكي J.C. Coquet يشمل السيرة الذاتية والعلمية لـ أ. ج غريماس A.J. Greimas». [13]

بوصفه الأب الشرعي للنظرية السيميائية في آخر مراحلها المتطورة، مع تتبع أبرز المحطات التاريخية المؤسسة للنظرية السيميائية، وذلك بهدف الكشف عن المرامي العلمية لغريماس، وكذا نشاطه العلمي المتعدد في تخصصات مختلفة.

وقد جاء اختيار الباحث لهذا النص استجابة لجملة من الاعتبارات:

1 الخلط الواضح في بعض البحوث العربية التي تبدو في الظاهر ذات توجه سيميائي وهي في العمق بعيدة كل البعد عن أن تمثل هذا التوجه، مما أدى إلى نوع من الاضطراب في القيم العلمية، حتى أصبح القارئ ضحية له وانعكاس ذلك على المردود العلمي.

2.سدّ النقص الذي يعاني منه القارئ العربي، فهو يتلقى معرفة سيميائية، وفي المقابل يفتقر إلى الخلفية التأصيلية التأريخية، والتي تمثل صلب جدية العمل.

الخاتمة:

إنّ تأكيدنا على قراءة اجتهادات «رشيد بن مالك» في حقل السيميائية السردية جاء استجابة لقناعة مؤادها، أن أعماله توثق بشكل جلي تلك المجهودات، التي تسعى في سبيل الارتقاء بمستوى التناول النقدي السيميائي في الساحة العربية، كما تعكس المستوى العلمي والرصيد المعرفي له في حقل النظرية السردية.

الإحالات

1 A.J Greimas, Eléments pour une théorie de l'interprétation du récit mythique. مباحث في السيميائية السردية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2008، ص44.

2 مقولة لـر.بارث R.Barth، يستهل بها برنارتوسان مؤلفه، ما هي السيميولوجيا، تر: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط: 02، 2000، ص: 07.

3 * مدرسة جنيف، حلقة براغ، أعمال جورج دوميزال / George Dumizal، أعمال كلودليفي ستروس / C. levistrause، أعمال فلاديمير بروب / Vladimir propp.

4 أحمد يوسف ،الدّلالات المفتوحة،الدّار العربية للعلوم،الطبعة الأولى،بيروت، 2005ص: 12-13

5 رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، د.ط، 2000، ص5.

6 المرجع نفسه، ص: 29.

7 رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، المرجع السابق، ص: 37.

8 المرجع نفسه، ص: 37.

9 : رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006، ص07.

10 رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، 2001، ص08

11 رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، المرجع السابق، ص: 08.

12 المرجع نفسه، ص: 49.

13 المرجع نفسه، ص: 08.

المراجع المعتمدة

1 :أحمد يوسف ،الدّلالات المفتوحة،الدّار العربية للعلوم،الطبعة الأولى،بيروت،2005.

[2] : A.J Greimas, Eléments pour une théorie de l'interprétation du récit mythique. نقلاً عن نادية بوشقرة، مباحث في السيميائية السردية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 2008.

[3]: مقولة لـر.بارث R.Barth، يستهل بها برنارتوسان مؤلفه، ما هي السيميولوجيا، تر: محمد نظيف، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط: 02، 2000.

[*]: مدرسة جنيف، حلقة براغ، أعمال جورج دوميزال / George Dumizal، أعمال كلودليفي ستروس / C. levistrause، أعمال فلاديمير بروب / Vladimir propp.

[4]: رشيد بن مالك، مقدمة في السيميائية السردية، دار القصبة للنشر، الجزائر، د.ط، 2000.

[5]: رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2006.

[6]: رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، 2001.